العزوف عن القراءة

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

ســألنى « متألم » على صفحات الرسالة ، فقال إنه مدرس أديب يتذوق القراءة ، ويهوى الاطلاع ، ولـكنه أصيب منذ عام بداء يقطع عليه سبيل هــذه اللذة العقلية ، وهو « النوم » حين يشرع فى مطالعة كتاب أو صحيفة

وقد فرحت بهذا السؤال ، لأنى وجدت شخصا يحب القراءة ويجد فى الاطلاع لذة ، وقد طال العهد — فى الزمن السابق — عن كانوا يلتمسون اللذة فى المتع الرخيصة المبتذلة . ومقياس رقى الأمم أخذ أهلهـا بالأدب الرفيع ، والإقبال على ارتشاف العلم ، ودوام النظر فى صفحات الـكتب ، والاستماع إلى حلقات الدرس والمحاضرة ، ممـا لم يكن معهودا فى العهد السابق ، أو مألوفا فى سياسة الملك السابق ، بل كان العهد عهد إسفاف ، تنتشر فيـه الخلاعة والتهتك ، ويقبل الناس مع ملـكهم على الإثم والفجور

وآية ذلك هذه الصحافة الصفراء التى كان همها أن تطلع على القراء بالسيرة المفضوحة ، وأخبار « الطبقة الراقية » فى حلبات الرقص وميادين السباق وموائد الميسر وعلى شواطئ البحار ، مع عرض صورهن فى ثياب تـكشف عن الفتنة وتبتعد عن الحشمة . وأصبحت عناية الصحف والمجلات نشر الصور للممثـلات وهن شبه عاريات ، وتسابقت جميعا فى هذا المضمار تنشد اجتذاب الشباب بالفتنة ، واستهواء الشيوخ بالخلاعة ، وتوجيه العواطف وجهة دنيئة ، والتلاعب بالغرائز الجنسية تبعثها وتثيرها من مكامنها . فأصبح القارئ العفيف كأنه راهب انقطع فى الصحراء ، أو سابح ضد تيار الماء

وكان التيـار جارفا يحمل المجتمع نحـو الأغلال والفساد ، ويبتعد به عن الجد والوقار . فإذا أخذ أحدنا بسبيل الجد والمثالية شعر كأنه غريب عن المجتمع الذى يعيش فيـه . ولعل عزوف « المتألم » عن القراءة راجع إلى شعوره بالانفصال عن الجماعـة حين يقبل على القراءة والاطلاع

قد يقول قائل : ولـكن صاحب السؤال يحتاط للأمر ويقرر أنه يهوى القراءة ويشتاقها ويرغب فيها ، فـكيف تزعم أنه غير راغب فيها ، وأن ميله إلى النوم دليل على صدوفه عنها ؟

ونقول فى الجواب عن هذا الاعتراض إن النفس الإنسانية أمرها شديد العجب ، فهى تبدى خلاف ما تبطن ، وتصدر عنها أفعال تباين ما يشعر به صاحبها . فهل نصدق الأعمال ونـكذب الشاعر ، أو نصدق الشاعر ونـكذب الأعمال ؟

واعلم أن اتجاه المحدثين فى علم النفس هو الأخذ « بالسلوك »

مع أحد سبيلا ، وليـكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة (١٨)

وتسمى هذه القداح «الأغفال» : جمع غفل ، بالضم ، وأصله فى الدواب مالا سمة له ، ومن الأرضين مالا علم فيها

وهذه القداح ثلاثة فى أصح الأقوال :

١ — الوغـــد

٢ — السـفيح

٣ — المنيح

وقد نظم أسماءها بعضهم فى قوله (١٩) :

لى فى الدنيـا سـهام ليس فيهن ربيح
وأساميهن وغــد وســفيح ومنيح

وقيل : وهذا قول شاذ — : إن عددها أربعة (٢٠) :

١ — المصدر

٢ — المضعف

٣ — المنيح

٤ — السـفيح

للبحث صلة

عبد السلام محمد هارون

(١٨) قال ابن قتيبة تعليقا على هـذا : « وبلغنى أن المتقامرين بالنرد إذا أحسوا من الرجل إلماء الفص على الوجه الذى يريده بالرزق — وهو ما يسمى فى عصرنا هذا فى مصر بالقرص — أتوا مع الفصين فصا ثالثا أو فصين ليس عليها رقوم . أو حصيات . ليأمنوا الحيلة » فلأمر ما اتخذ العرب هذه القداح مع قداح الحظ

(١٩) الفخر الرازى (٢ : ٢٢٠)

(٢٠) تفسير أبى حيان (٢ : ١٥٤)

والأعمال الظاهرة ، وليس لهم شأن بما يجرى داخل النفس من ظواهر شعورية . وهناك مدرسة كبيرة على رأسها الأمريكان ، ويتبعها بعض العلماء فى أوربا ، تبحث فى علم النفس بغير الشعور . ونحن إلى هذا الاتجاه أميل ، فنقدم العمل ولا نقبل الشعور ، ونصدق السلوك ونفسر به النزعات الباطنة

وعلى هذا الأساس يسهل علينا تفسير هذه الظاهرة التى يذكرها صاحبنا ، فهو يمسك بالكتاب ولا يكاد يقرأ منه بضع صفحات حتى تأخذه سنة من النوم . هذا هو الواقع المشاهد الذى لا سبيل إلى إنكاره . فما العلة فى ذلك ؟

وسوف نبين العلة الصحيحة بعد أن نستبعد ما يذكره عن مشاعره الباطنة ، من أنه يتمتع بما يقرأ تمتعا زائدا . فهذا الشعور غير صادق ، بل هو تمويه من النفس . فلا يستقيم أن تكون المتعة حقيقية ثم ينصرف عنها نائما ، بل العكس هو الصحيح

والنوم عند القراءة دليل لا يخطئ على عدم الرغبة فيها . وقد يعبر الإنسان تعبيرا آخر يفصح عن هذا الصدوف ، كأن ينسى الموضع الذى ترك فيه الكتاب ، أو ينسى اسمه وموضوعه ، أو يجد فى عينيه تعبا ، وقد يصاب أحدنا بظهور « الذبابة الطائرة » وهى نقطة سوداء تعاكس الرؤيا ، وهذا إنذار بالتعب من القراءة ، وفى بعض الأحيان يصاب الشخص بعمى تام ، فلا يبصر شيئا ، لا لعلة فى العين ، بل لشدة الإجهاد العقلى فى القراءة والرغبة اللاشعورية فى الابتعاد عنها

الحق أن القراءة ليست شيئا فى طبيعة البشر ، فقد ركب الله العين فى الإنسان ليبصر بها الأشياء الخارجية فيعرفها فى المناظر من جمال هو الذى يبعث المتعة فى جوانب النفس

والأصل فى التفاهم بين الناس السمع لا البصر ، ولذلك قيل الإنسان حيوان ناطق . فالألفاظ التى يتألف منها الكلام تنتقل من الفم إلى الأذن ، ويتم عند ذلك الإدراك ويحصل العلم . حتى إذا أخذ الإنسان يتحضر عرف التدوين والكتابة ، وسجل الألفاظ المنطوقة فى رموز مكتوبة رسمها رسما . واتسعت الكتابة مع الرق ، وكثرت الكتب ، وأصبحت مرجع الناس فى تحصيل العلوم ، مع أن الأصل أن يستمد المرء العلم سماعا ويتلقاه من أفواه العلماء . ولعلك عندئذ تعلم لماذا امتنع سقراط عن التدوين ، ولماذا كان يلقى دروسه إلقاء

الكتب — وقاك الله شرها — فيها منافع وفيها مضار . ثمن منافعها أنها تلخص لك أفكار العلماء الذين أفنوا أعمارهم فى بلوغها فى حيز ضيق ، تستطيع أن تحصله فى ساعات قليلة . ومن منافعها أن العلم ينتقل إليك فى دارك فتطلع على آرائه وأنت مضطجع ، بدلا من شد الرحال إليه . ومن منافعها أنها صديق تأنس إليه وقت الشدة فيفرج همك ويسرى عنك ويبعث فى نفسك المتعة حتى إذا سئمته ألقيته جانبا

ومن مضارها أنها كالجثة الهامدة لا حياة فيها ، لأن حياة الأفكار فى حياة قائلها ، ولذلك كان الاستماع إلى حديث العالم أمتع للنفس وأرسخ فى الذهن

ومن مضارها الذهاب بقوة البصر ، لأن التحديق فى الحروف السوداء المكتوبة ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، يجهد العين ويضعفها

وكل قارئ تمر به فترات من الضيق فيسأم الاطلاع فى وجوه الكتب ، ويصدف عنها ، ولا علاج لذلك إلا تركها مدة من الزمن ، والترويح عن النفس بقراءة « كتاب الطبيعة » . وهذا شئ قل أن يفعله القراء فى الشرق ، نعنى الخروج إلى الحدائق العامة والتأمل فى مباهج الطبيعة . وكان عادة أرسطو أن يلقى دروسه فى بستان وهو يجوس خلال مماشيه ، ولذلك سمى أتباعه بالمشائين

* * *

فلا تتألم أيها السائل لأنك تنام عند القراءة ، واسترح قليلا ، وخذ العلم من المجالس ومن أفواه العلماء ومن قراءة كتاب الطبيعة

أما النوم الذى تشكو منه ، فإن لم يكن لعلة جسمانية وضعف طارئ ، فهو رد فعل طبيعى لإرغام نفسك على ما لا تحب وتشتهى

والابتعاد عن الأشياء غير المرغوب فيها يتخذ أشكالا مختلفة ، فشخص يلقى الكتاب من يده ، وآخر يمزقه ، وثالث يبيعه . أعرف ناسا كثيرين حين ضاقوا بالقراءة باعوا مكتباتهم التى اقتنوها على مر الزمان ، فلما ذهبت فترة السأم والملال ندموا على ما فعلوا